الدرس السادس: التغير الدلالي ومظاهره

تمهيد: لقد دأب الإنسان على تسمية كل ما احتاج إلى الإبانة عنه، فجعل لكل مسمى اسما. إلا أن متأمل اللغة عبر عصورها المختلفة يلاحظ أن العلاقة بين الأسماء والمسميات لم تبق ثابتة؛ إذ يجد أحيانا أن الاسم قد صار يعبر عن مسمى جديد؛ أي أن اللفظ قد تغيرت دلالته، كما يجد أن المسمى الواحد قد تعددت أسماؤه. فما سبب هذا التغير الذي طرأ؟ أو بصيغة أخرى ما سبب التغير الدلالي؟

قبل الحديث عن أسباب التغير الدلالي نشير باختصار إلى أسبابه. والتي تتمثل في أسباب داخلية؛ لغوية، وأخرى خارجية؛ غير لغوية.

فأما الأولى: فتتمثل في التصريف؛ إذ قد يحدث أن تتوافق كلمتان مختلفتا الأصل والدلالة في صيغة صرفية واحدة. مثال ذلك (ظهور) مصدر(ظهرَ)، و(ظهور) جمع (ظهْر). (سائل) من (سأل) و(سائل) من (سال).

والإبدال؛ إذ يحدث أن يبدل صوت محل آخر من كلمتين متقاربتي الأصوات مختلفتي الدلالة فتصيران بالإبدال كلمة واحدة بدلالتين مختلفتين. مثال ذلك (الأسيف) وهو سريع الحزن والبكاء. أبدلت همزتها عينا فاتفقت و (العسيف) وهو الأجير. فصار للعسيف دلالتان؛ الأصلية وهي: الأجير، والناتجة عن الإبدال وهي: سريع الحزن والبكاء.

زيادة عن التغير المجازي بأن يكون للفظ دلالة حقيقية ثم يكتسب أخرى مجازية. كالرقبة لرقبة الإنسان حقيقة، وللعبد مجازا.

وأما الثانية فتتمثل في الحاجة للتعبير عن المستجدات المادية والمعرفية، كالهاتف للمنادي في دلالته الأصلية والهاتف وسيلة الاتصال الحديثة، والعروض بدلالاتها المعجمية المعروفة، ودلالتها الاصطلاحية في علم العروض.

ويشمل ذلك أيضا الحاجة للتعبير عن العقيدة الجديدة كما الشأن مع دين الإسلام؛ الذي أحدث ثورة عقيدية، تبعتها أخرى لغوية؛ إذ تغيرت دلالات كلمات كثيرة؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم...وغيرها.

من الأسباب الخارجية تعدد اللهجات؛ بأن تسمي قبيلة من القبائل العربية المسمى باسم تطلقه قبيلة أخرى على مسمى آخر. وبالاحتكاك بين القبيلتين يصير للفظ الواحد دلالتان. مثال ذلك: (الهجرس) عند الحجازيين القرد، وعند التميميين الثعلب.

من بين الأسباب الخارجية أيضا التلطف في التعبير، والتأدب كأن يقال للأعمى بصير. والبصير الذي يرى وبالتالي يصير له دلالتان؛ الذي يرى والذي لا يرى.

من ذلك أيضا التفاؤل كأن يقال للملدوغ ـ الذي لدغته أفعى ـ سليم تفاؤلا بالسلامة، فيصير للملدوغ دلالتان.

هذه أهم أسباب التغير الدلالي، إضافة إلى أخرى يضيق المقام عن تناولها.

مظاهر ـ أو أشكال ـ التغير الدلالي: عندما تتغير دلالة لفظ من الألفاظ تتخذ في ذلك مظهرا من المظاهر التالية:

1ـ الانتقال من الدلالة الحسية إلى المعنوية؛ أو ما يعرف بالانتقال من المحسوس إلى المجرد. ذلك أن الإنسان دأب على تسمية الأشياء المحيطة به. وتماشيا وتطور الذهن البشري، ورقيه تنتقل دلالات بعض اللفاظ من المحسوس إلى المجرد. مثال ذلك: (السّموّ) كان يطلق على الارتفاع المادي، ثم صار يطلق على الرفعة المعنوية. وكذا (العقل) كان يطلق على الحبل ثم صار يطلق على عقل الإنسان.

2ـ تخصيص الدلالة: وذلك أن تنتقل الدلالة من معنى عام إلى آخر خاص؛ إذ يضيق الحيز الدلالي للكلمة بعد أن كان عاما. مثال ذلك: كلمة مأتم التي كانت تطلق على الاجتماع في خير أو في شر، ثم خصت بالاجتماع في مصيبة الموت. وكذا كلمة الحج التي كانت تطلق على السفر عموما ثم خُصّت بالسفر إلى بيت الله تعالى لأداء مناسك الحج.

3ـ تعميم الدلالة: وهو عكس السابق؛ حيث تنتقل الدلالة من خاص إلى عام وتكتسب دلالة أو دلالات جديدة. مثال ذلك: الورطة التي كانت تطلق على وقوع الشاة في الوحل. ثم صارت تطلق على الوقوع في أي مشكلة. وكذا البَأس التي كانت تطلق على الشدة في الحرب ثم صارت تطلق على كل شدة.

4ـ التحول المجازي: وهو أن يكون للفظ دلالة حقيقية ثم لعلاقة المشابهة أو لغيرها من علاقات المجاز المرسل يصير له دلالة مجازية. كدلالة اليد على العطاء، والعين على الجاسوس، والرقبة على العبد...

5ـ رقي الدلالة: يعرف بالتغير المتسامي؛ وفيه يصير للكلمة دلالة راقية ورفيعة بعد أن كانت له دلالة بسيطة. مثاله كلمة الحجّ التي مثلنا بها لتخصيص الدلالة. فقد تخصصت دلالته ورقت في الوقت نفسه. ومثاله أيضا كلمة رسول التي كانت تدل على كل مرسل ثم ـ مع مرور الوقت ـ صارت تدل على حامل الرسالة السماوية.

6ـ انحطاط الدلالة: ويكون بفقدان اللفظ سمو دلالته بعد أ كان سام مثاله كلمة الحاجب التي كانت تطلق على الوزير أو ما قاربه، ثم صارت تطلق على الحارس. الشمطاء التي كانت تطلق على العجوز التي شاب شعرها. ثم صار يطلق العجوز الشريرة.